١٥- فارس الفرسان

(محمد عبيد)

(وهكذا كان الشكر والفخر للبطل المقدام والشجاع الهمام محمد أفندى عبيد الذي كان إنقاذنا من الهلاك على يديه) هكذا كتب عنه الزعيم أحمد عرابي في مذكراته .. واحد من قافلة المصريين البواسل في تاريخ الحياة العسكرية ، مصريًا عملاقًا يطاول قامات النخيل في شموخها ، عبقريًا في حسن التخطيط والتدبير سريع البديهة حاضر الذهن متقد الحماس ، مثابرا ككل الشرفاء ، رأسه على كفه مناضلاً من أجل شرفه العسكري.. إنه محمد عبيد ، أحد أهم القادة البواسل في تاريخ العسكرية المصرية على مدى تاريخها المشرف وأحد الذين أدوا دورهم في كل معركة خاضها ، وقد حدث في معركة التل الكبير أن صب الإنجليز جام غضبهم على الآلاي الذي يقوده محمد عبيد وكبدهم الخسائر الفادحة ، فكانت نيرانهم بلا توقف ومحمد عبيد وهو بين جنوده

الثلاثة آلاف يحثهم ويدفعهم لمواصلة القتال والنيل من العدو دون يأس أو استسلام ولم يلقوا بالسلاح .. ولد محمد عبيد في كفر الزيات والتحق بالجيش المصري جنديًا عاديًا وشق طريقه وسط مصاعب جمة ليثبت وجوده وعلى قدر جهده أنصفه القدر مثل غيره من الجنود المصريين الذين ترقوا إلى رتبة الضباط وصار محمد عبيد يترقى من رتبة إلى أخرى حتي وصل إلى رتبة البكباشي في آلاي السودان في مايو ١٨٨٠م ، في تلك الفترة كان عثمان رفقي باشا ناظرًا « وزيرًا « للجهادية وكان قد اتخذ موقفًا عدائيًا من محمد عبيد نفسه وقرر نقله من موقعه ليحل مكانه أحد الضباط الشراكسة .. قصد محمد عبيد بيت الزعيم أحمد عرابي وبصحبته قائده عبد العال حلمي حكمدار الآلاي السوداني ليطلعاه على مؤامرة عثمان رفقي.

فقام عرابي على الفور بتحرير عريضة وجهها إلى رئيس الوزراء رياض باشا يطلب فيها عزل ناظر الجهادية ، وقام بالتوقيع عليها ومعه عبد العال حلمي وعلي فهمي وصلت العريضة لرئيس الوزراء فأصدر أمرًا بإحالتهم إلى المحاكمة أمام مجلس عسكري وقام بدعوة ثلاثتهم إلى ديوان الجهادية بجهة قصر النيل بدعوى الاستعداد لحفل زفاف إحدى الأميرات

وخشي أن يعلمهم بالأمر الحقيقي وأخفاه عنهم تمامًا.. لم يكد عرابي ورفيقاه عبد العال حلمي وعلي فهمي يصلون إلى ديوان الجهادية حتى تكالب عليهم الضباط الشراكسة وعلى الفور صدرت الأوامر بنزع سلاحهم والزج بهم في السجن دون محاكمة.. لم يكن يدر في خلد محمد عبيد أن يصل الأمر إلى هذا الحد وحين شعر بتأخرهم في العودة بدأت الشكوك تساوره وتوجست نفسه خيفة من أن شرًا قد حاق بهم .. كان محمد عبيد في تلك الفترة هو ضابط قشلاق الحرس في قصر عابدين ، وعلى الفور أصدر أوامره إلى جنوده بالاستعداد للاتجاه إلى ديوان نظارة الحربية بقصر النيل ، ووقت وصولهم حاول قائده الشركسي خورشيد باشا أن يحول بينه وبين السير قدمًا في تنفيذ مقصده فلم يمتثل محمد عبيد لأوامره وأعلن أنه لابد أن يقوم بإنقاذ إخوانه ، قبض على خورشيد وحبسه بإحدى غرف المعسكر وهو يعلم تمامًا بأنه بذلك يقوم بمخاطرة كبرى سوف تؤثر في مستقبله العسكري ، ولم يكد عثمان رفقي ورفاقه يشعرون بالخطر يحاصرهم حتى داهمهم الخوف ولم يجدوا سبيلًا للنجاة سوى الفرار بأنفسهم .. وعلى الفور دخل محمد عبيد وجنده البواسل مقر نظارة الجهادية وبحثوا عن السجناء حتى

عثـروا عليهـم وأطلقـوا سـراحهم وحلـوا مـا في أيديهـم مـن وثـاق وأعـادوا لهـم حريتهـم الـتي افتقدوهـا .. ولـولا مـا أقـدم عليـه محمـد عبيـد مـن بطولـة لكانـت الفرصـة قـد سـنحت لإصـدار الأوامـر بنفـي عرابـي وصحبـه إلى السـودان أو اقتيادهـم إلى حبـل المشـنقة ، ولـولا وقفـة الضبـاط والجنـود صفًـا واحـدًا خلـف قادتـه مـن المصريـين مـا تزحـزح عثمـان رفقـي عـن موقفـه ،ليصبـح الطريـق ممهـدة ليتـولى رجـل بقامـة محمـود سـامي البـارودي مرشـح كل المصريـين لاعتـلاء منصـب ناظـر الجهاديـة.. ونصـل إلى يـوم الجمعـة ٩ سـبتمبر ١٨٨١ ونـرى الفـارس محمـد عبيـد يقـف خلـف الزعيـم أحمـد عرابي وهـو يقف في ميـدان عابديـن ليطالـب الخديـو توفيق بحقوق الأمـة المصرية ومسـاواة المصريـين بالأجانب وتتطـور الأحـداث ويسـتعين الخديـو الخائـن بإنجلـترا الـتي تقـوم بغـزو مصـر ويتصـدى عرابـي بفرسـانة لجيـش الإمبراطوريـة الإنجليزيـة الـتي لا تغـرب عنهـا الشـمس ويوقـع بهـم الهزيمـة في كفـر الـدوار وينسـحب الجيـش الإنجليـزي ويسـتغل تواطـؤ الفرنسـيين المتحكمـين في قنـاة السـويس ويغـزو مصـر مـن الشـرق بعـد عبـور قنـاة السـويس ويندفـع عرابـي بجيشـه مـن المصريـين البسـطاء ليتصـدى للإنجليـز في التـل الكبـير ولكـن خيانـة الخديـو ورجالـه واسـتمالته لبعـض الضبـاط

والقبائل ليخونوا وطنهم مقابل المال والمناصب ووسط كل هذا الخزى واليأس والإحباط ومن أعمق أعماق الهزيمة يشرق ثانية نجم فارس الفرسان محمد عبيد إذ يقف صامدا برجاله (ثلاثة آلاف مقاتل مصري) ببنادقهم العتيقة في وجه جيش الإمبراطورية الإنجليزية بكل أسلحته ومدافعه صمدوا وعلم مصر وراءهم يفتدونه بأرواحهم ومع سقوط آخر جسد منهم ومع انقشاع غبار المعركة وقف قادة الجيش الإنجليزي احتراما وإجلالا لجسد الفارس ورجاله إنه محمد عبيد فارس الفرسان، رسم الشاعر المصري الأصيل فؤاد حداد ملامحه فقال : شوف البطل

الفارس المصري الشهم

زارق من الدوامة زي السهم

وجبينه صاحب هم بيفكر

ويغازل النور اللي يتفجر

أتم أوضح من هلال أبو زيد

شوف البطل اسمه محمد عبيد

الفارس المصري الأصيل الحر

يرجع على التل الكبير ويكر

رمق الشهادة في الطريق المر

يفضل على طول الزمن منصور

وما يتقلعشي من السلاح والمهر

ولا من شبابه لحد نفخ الصور

الملحمة أخلد من التماثيل

كان حي ماله في الشجاعة مثيل

كان جسم في تراب الوطن مثواه

كان قلب كل المؤمنين جواه

شوف البطل اسمه محمد عبيد

الفارس المصري الأصيل

obeikandl.com